الفصل الثامن
نظريـــة الماهيـــة

تمهيد :

يقوم استنباط الماهية من المرحلة الأخيرة للوجود علي الوجه التالى :

الكم والكيف مترابطان لا ينفصلان ، فالكيف يرتد إلى الكم . والكم يرتد الى الكيف . إنهما إذن ذوا هوية واحدة . ولكنهما فى الوقت نفسه مختلفان لأن الواحد منهما يتحول إلى الآخر . فهناك من جهة أولى وحدة الكيف والكم ، وهناك من جهة ثانية اختلاف الكيف والكم . وذلك يعطينا مفهوم طبقتين للوجود. الطبقة الدنيا تتكون من وحدة الكيف والكم . والطبقة العليا تتكونت من اختلافهما. وهذه الطبقة الأخيرة وحدة لا تتغير ، ولكنها كثرة يتحول فيها الكيف والكم أحدهما إلى الآخر . هذه الصورة المزدوجة للوجود هى الماهية .

إن الماهية تتضمن مستويين للوجود : ظاهر وباطن . الوجود الظاهر هو دائرة الاختلاف والوجود الباطن هو الوحدة التى تسند الاختلاف. الوجود الظاهر إذن هو المظهر . والوجود الباطن أو العميق هو الماهية .

وهذا يعنى أن الخاصة الأساسية لدائرة الماهية بصورة عامة هى أن كل شيء ينظر اليه من جانبين اثنين . فنحن نميز بين حقيقة الشىء أو ماهيته وبين مظهره الخارجى . فوراء الأعراض نرى الجوهر . ووراء كل ظاهرة نبحث عن علة لها .

الماهية هى الحد الثانى فى الثلاثية الكبرى التى تؤلف المنطق كله (الوجود والماهية والمعنى) . فالوجود كما رأينا هو دائرة المباشرة . والماهية هى دائرة اللامباشرة أو التوسط . فمقولات دائرة الوجود تكون مستقلة بنفسها ولا تحتاج إحداها إلى الأخرى . صحيح أن الجدول قد بين ارتباط هذه المقولات فى دائرة

الوجود . إلا أن الارتباط ضمنى وبحاجة الى الكشف عنه . أما مقولات الماهية التى تؤلف دائرة التوسط فالارتباط بينها معلن صريح . فهاهنا مقولات لا توجد إلا إذا كانت كل مقولة منها ترتبط بمقولة ثانية ارتباطا ضروريا . فلا علة بدون معلول . ولا جوهر بدون أعراض ، ولا باطن بدون ظاهر ولا وحدة بدون اختلاف. ولا إيجاب بدون سلب .

الماهية إذن هى دائرة النسبية الكلية، فاذا كانت الكيفيات والكميات هى مظاهر العالم التى تجابهنا مباشرة ونعرفها بالادراك ، فاننا لا نستطيع أن ندرك مباشرة أن شيئا ما هو علة أو جوهر . إن هذه المعرفة الأخيرة تتطلب تفكيرا ومقارنة . أى تتطلب توسطا .

ولهذا كانت الماهية وجهة نظر الفهم كما كان الوجود وجهة نظر الادراك المحض . والأمر هنا شبيه بما نعرفه فى المنطق . فالمنطق الصورى يبدأ بنظرية الحدود . إن الفعل فى هذه المرحلة يدرك موجودات مفردة مستقلة . فنظرية الحدود تقابل إذن نظرية الوجود . ولكن المنطق الصورى ينتقل إلى نظرية الاحكام أو القضايا . وهنا نكون بصدد حدين تربط بينهما رابطة . فبدلا من وضع الحد «انسان» نضع القضية : الانسان هو فان . فالحكم إذن توحيد بين حدين مختلفين، إنه من عمل الفهم . ونظرية الحكم تقابل نظرية الماهية التي لا نجد فيها مقولات مستقلة وانما ازواجا من المقولات ترتبط فيما بينها كما ترتبط الحدود فى القضية .

قلنا ان الفهم هو دائرة التمييزات والاختلافات . ومن هنا كانت مقولات الفهم أدوات العلم لمعرفة العالم . فوظيفتها إيجاد الفروق والالحاح على التعريفات والحدود وتبيان العلائق بين الاشياء . وقولنا إن الماهية فى دائرة النسبية يتضمن ان مقولات الماهية هى جميعا مقولات النسبة أو الاضافة ، وهى التى تؤلف الأداة الأساسية للعلم .

ولهذا السبب كان موقف العلم من الأمور الدينية موقفا ريبيا . فالعلم يلح

على نسبية كل معرفة وعلي استحالة معرفة ما هو مطلق ، معرفة الله . فكل معرفة نحصل عليها بواسطة مقولات الماهية انما هى معرفة نسبية . أما معرفة المطلق فلا تتم الا عندما تتجاوز الماهية ونصل إلى مقولات المعنى التى هي مقولات الدين والفلسفة .

والماهية بدورها تعريف للمطلق . فالمطلق هو ماهية العالم . إنه الموجود الذى يثوي وراء العالم منبعا غير مولى له . والمطلق منظورا إليه بوصفه ماهية ، هو الحامل أو الوحدة العميقة التي تكشف عن نفسها فى ظواهر العالم المتنوعة والمتعددة . والنظر الى المطلق علي أأنه ماهية هو تعريف للفلسفة الهندوية والفلسفة الشرقية بصورة عامة . ذلك ان الفلسفة الهندوية لم تبلغ التعريف الذى ستقدمه مقولات المعنى .

وكثيرا نجد وصفا للمطلق بواسطة هذه المقولة أو تلك من مقولات الماهية. فقد فهم على أنه العلة الأولى للعالم (مقولة العلية) أو القوة التى تسند الظواهر (مقولة القوة) أو الجوهر كما هو الحال عند اسبينوزا (مقولة الجوهر) أو هو الواحد فى الفلسفة الشرقية (مقولة الهوية) . كل هذه التعريفات صحيحة بمعنى أنها جوانب للحقيقة . ولكنها جميعا خاطئة لأنها غير موافقة . ذلك أن مقولات المعنى هى وحدها القادرة علي التعبير عن الحقيقة المتصلة بالإله .

رأينا أن الماهية تدل على مستويين من الوجود . المستوي العميق هو الماهوى، اما المستوى الظاهرى فهو مستوى الوجود المباشر ومستوى عالم الجواهر الذى يظهر هذه الماهية . فها نحن إذن فى خطوة أولى أمام رابطة بين ما هو أساسى وبين ما هو غير أساسى . ولكننا فى خطوة أخرى نتبين أن ما هو غير أساسى يتعلق بما هو أساسى (ماهوى) وأن ما هو أساسى يتعلق أيضا بما هو غير أساسى . وإذا لم يكن للماهية من مظاهر . فان الماهية تكف عن أن تكون ماهية . إنها ماهية شيء ما ، ويكفى أن يتقوض هذا الشيء ، حتي تتقوض الماهية نفسها . وهذا يعنى أن ما هو أساسى أى الماهية يتعلق بما هو

obeikandl.com

غير أساسى أى المظهر . فاذا كان المعلول يتعلق بالعلة فان العلة بدورها تتعلق بالمعلول ، لأنه لولا وجود المعلول له لعدمت العلة . وكذلك الأمر في الموجب والسالب فكلاهما يحيلنا إلى الآخر . وهذا يعنى آن التعلق بين الحدود ليس من جانب واحد وانما هو تعلق متبادل .

هذا التعلق المتبادل بين الحدود هو ما يسميه هيجل بالانعكاس . وقد رأينا فى دائرة الوجود أن رابطة التعلق لم تكن متبادلة ، فالشىء يرتبط بآخر وهذا الآخر بآخر وهكذا . أى آن (أ) تتعلق بـ (ب) بـ (جـ) وهكذا . ولكننا ها هنا نجد أن (أ) تتعلق بـ (ب) و (ب) تتعلق بـ (أ) وهكذا . وهذا التعلق الكلى هو نقطة الانطلاق للتأمل (الفكر والانعكاس) ومذهب الماهية يقع في ثلاث دوائر هى :

(١) دائرة الماهية بوصفها أساساً للوجود المشخص .

(٢) دائرة المظهر .

(٣) دائرة الواقع .

obeikandi.com

الماهية بوصفها أساسا للوجود المشخص

نستطيع أن نميز فى الماهية بين ثلاث مراحل (١) المبادىء او المقولات المحضة للتأمل . (٢) الوجود المشخص . (٣) الشىء .

القسم الأول

المباديء او المقولات المحضة للتأمل

إن مقولات التأمل هذه هى : (أ) الهوية ، (ب) الاختلاف . (جـ) الأساس. وقد سميت بمبادىء التأمل لأن الهوية والاختلاف هما المبدآن الأساسيان للفهم، أما الأساس كما سنرى فهو وحدة الهوية والاختلاف . ولنبدأ باستنباط هذه المقولات .

١ - الهوية

لقد رأينا أن للماهية جانبين ، ما هو أساسى وما هو غير أساسى . ولكننا رأينا أيضا أن ما هو غير أساسى لا يقل أهمية عن الاساسى . فليست (أ) هى التى تتعلق بـ (ب) ولكن (ب) ايضا هى التى تتعلق بـ (أ) . فالعلاقة بين أ و ب هى نفسها العلاقة بين ب و أ . فها هنا هوية بين طرفى العلاقة . فكل طرف منهما ما هوى ، فالماهية نفسها هى التى تظهر . أى إن المظهر هو الماهية. إن هذا التعادل بين طرفى العلاقة يعطينا مقولة الهوية لإن الماهية ليست ماهية إلا بفضل علاقتها مع المظهر . ولكن المظهر نفسه ماهية . وهذا يعنى إذن أن علاقة الماهية بالمظهر هى علاقة الماهية نفسها وهذه العلاقة بالذات هى الهوية . وعندما نعبر عن هذه العلاقة فى قضية فانها تصبح أ هى أ ، وهذا هو المبدأ المنطقى للهوية . أما مبدأ عدم التناقض فهو مبدأ الهوية نفسه فى صيغة سالبة .

ونظراً الى ان هيجل قد اتهم بأنه ينكر مبادىء العقل فلابد من ان نعود إلى ما قاله صراحة : «لقد قيل أن مبدأ الهوية على الرغم من انه غير قابل

للبرهان ينظم عمليات التفكير وأن التجربة تبين ان هذا المبدأ ما ان يدرك حتى يقبل . ونستطيع ان نعارض هذه التجربة بتجربة شاملة ايضا مؤداها الى الفكر لا لعمل أبدا وفقا له كما ان الموجودات لا تتطابق معه . فقولنا : الكوكب هو كوكب والفكر هو فكر هو قول بليد عقيم» .

ويوضح هيجل أن هذا المبدأ المزعوم ليس خاطئا ولكنه تجريد ذو جانب واحد. فالمقولة التى وصلنا إليها هى مقولة الهوية المجردة أى الهوية التى تستبعد الاختلاف . كما أن المقولة الثانية هى أيضا مقولة الاختلاف المجردة كما سنرى، أى الاختلاف الذى يستبعد الهوية . فكل من المقولتين ليس سوى تجريد يفقد معناه إذا انفصل عن الآخر .

أما الحقيقة العينية فسوف نجدها فى التركيب بين المقولتين أى فى وحدة الهوية والاختلاف والتى ستظهر فى مقولة الاساس . ان مبادىء العقل لا تعبر الا عن الهوية المجردة وعن الاختلاف المجرد فهى بهذا المعنى ليست خاطئة بل ساذجة عقيمة لان جانبا من الحقيقة لا يعنى شيئا بدون الجانب الآخر . ويشير هيجل الى ان القضايا التى نطلقها عامة لا تقول (أ) هى (أ) او الإنسان هو الإنسان وإنما نقول (أ) هى (ب) أو الانسان هو فان . وهذا يتضمن الهوية والاختلاف معا . ذلك أن قولنا (أ) هى ب يتضمن أولا أن (أ) و (ب) شيئان مختلفان (فالحد : انسان يختلف عن الحد : فان) . ويتضمن ثانيا أن (أ) ، (ب) هما شىء واحد ذلك أن الحكم هو الذى يوحد بينهما .

٢ - الاختلاف

إن استنباط الاختلاف من الهوية يتم على النحو التالى :

الهوية هى علاقة الماهية بنفسها. ولكن هذه العلاقة بالذات تتضمن أيضا حدين تقوم بينهما العلاقة . فلا علاقة حقيقية الا بين شيئين يختلفان فيما بينهما. فالهوية اذن تتضمن الاختلاف بالضرورة والاستنباط هنا شبيه بالاستنباط الذى رأيناه عندما انتقلنا من الواحد إلى الفكرة .

وينقسم الاختلاف بدوره الى ثلاث مراحل أو مقولات ثانوية هى :

(١) التنوع، (٢) الشابه واللاتشابه . (٣) الإيجاب والسلب .

١ - التنوع

لقد أشرنا إلى المبدأ العام القائل إن الحد الأول فى الثلاثية يكون مباشرا . فالاختلاف إذن ، فى مرحلته الأولى هو اختلاف مباشر . وهذا يعنى ان المختلفات، فى هذه المرحلة ، لا يتوسط أحدها الآخر ولا يرتبط به ارتباطا كاملا. والتنوع هو هذا الاختلاف بين عدد من الأشياء لا تقوم بينها رابطة من نوع خاص. فالقلم يختلف عن الكتاب . ولكن القلم ليس فى تعارض مع الكتاب . إنه يختلف عنه فحسب . أما النور والظلام فبينهما تعارض . والعلاقة بينهما هى علاقة التضاد التى تختلف عن التنوع . ونحن لم نصل بعد إلى مقولة التضاد ، ولكننا نشير إليها لتبيان الفرق بينها وبين مجرد التنوع . فالقلم يختلف عن الكتاب كما يختلف عن البيت والكوكب، أو عن أى شىء آخر . أما فى علاقة التضاد فلكل شىء ضده الخاص : النور هو ضد الظلام وهكذا . ولهذا قلنا إن الاختلاف فى مرحلته الأولى هو اختلاف مباشر أو هو التنوع .

التشابه واللاتشابة :

إن العلاقة بين الشيئين المختلفين لا تقوم فيهما بالذات وانما هي خارجية بالنسبة اليهما وهذا الذى يميزها عن العلاقة بين الايجاب والسلب لان العلاقة ها هنا متمضنته فى تعريف كل من الايجاب والسلب ، أو أنها داخلة فيهما، التشابه اذن علاقة خارجية ولا تتم الا بفضل المقارنة التى تجريها بين أ و ب . انه ليس موجودا فى أ وحدها ولا فى ب وحدها بفضل المقارنة التى تجريها بين أ و ب . انه ليس موجودا فى أ وحدها ولا فى ب وحداها .

٢ - الايجاب والسلب (التضاد)

يقصد هيجل بالايجاب والسلب علاقة التضاد . فالاختلاف بين المتضادين

obeikandi.com

ليس مجرد اختلاف وانما هو اختلاف نوعى . والتضاد قائم بين النور والظلام وبين الشمال والجنوب وبين الحار والبارد .

التشابه هوية واللاتشابه اختلاف . وكما ان الهوية تتضمن الاختلاف والعكس بالعكس فالتشابه يتضمن اللاتشابه والعكس بالعكس ايضا . ان بينهما تعلقا متبادلا . ولكنهما فى الوقت نفسه مختلفان . إن كلا منها تجريد لا يفهم الا بغيره . هذا التغاير هو التضاد .

٣ - الأساس

الأساس تركيب الهوية والاختلاف . فكيف يستنبط وما هو معناه؟

الإيجاب إيجاب بالنسبة إلى السلب ، والسلب سلب بالنسبة إلى الإيجاب. ونحن نستطيع أن نعد الشمال موجبا والجنوب سالبا . كما نستطيع أن نجعل الشمال سالبا والجنوب موجبا (بالنسبة الى الشمال) . وهذا التعلق المطلق بين الايجاب والسلب هو «الأساس» . ذلك ان تعلق السلب بالإيجاب يجعل الإيجاب «أساسا» للسلب . كما أن تعلق الايجاب بالسلب يجعل السلب أساسا للايجاب. فهنا يختفى التمايز بين الإيجاب والسلب ووحدتهما هى ما نسميه بالأساس .

ولكن حركة الجدل بينت أن الهوية تصبح تشابها وأن الاختلاف يصبح انعدام تشابه ، والتشابه بدوره يصبح الايجاب ، واللاتشابه يصبح السلب . فالإيجاب إذن هوية ، والسلب اختلاف . وهذا يعنى ان الأساس الذى قلنا عنه إنه وحدة الايجاب والسلب ، هو أيضا وحدة الهوية والاختلاف .

القسم الثاني

الوجود المشخص

إن فكرة الاساس تتضمن تمايزا باطنيا ، فكل أساس هو أساس لشيء

آخر هو المؤسس أو النتيجة . وكما وحدنا بين الإيجاب والسلب ، نوحد هنا بين الأساس والنتيجة . فإذا كانت (ب) أساسا لـ (جـ) فـ (جـ) هى أساسها لنفسها. النتيجة إذن هى أساس نفسها . ولكن ما وصلنا إليه يعنى ان مقولة الأساس تصبح عديمة الفائدة . إنها تفسر الشىء بنفسه . وتفسير أفعال الانسان بطبعه لا يعنى شيئا لأن الطبع يعرف من الافعال . ونرى الأمر نفسه عندما نقول إن الانسان قادر على التفكير لأنه يملك «ملكة» التفكير . ذلك ان ملكة التفكير ليست سوى لفظة تعبر عن قدرة الانسان على التفكير .

أن زوال التوسط بين الأساس والنتيجة، يجعل كلا منهما وجودا مباشرا أو وجودا شخصيا . وهكذا ننتقل الى فكرة موجودات شخصية كل منها أساس للآخر .

فالمقصود بالوجود المشخص إذن هو هذا العالم من التعلق المتبادل بين الأسس والنتائج .

والفرق بين مقولة الوجود التى رأيناها فى البدء وبين مقولة الوجود المشخص هو أن هيجل يقصد بالوجود المشخص وجود الأشياء التى ترتبط بغيرها وتؤلف منظومة العلاقات التى تكون العالم . فالوجود المشخص هو وجود مؤسس ، ويمثل بالتالى مقولة أكثر عينية من مقولة الوجود المجرد .

القسم الثالث

الشــىء

تحدثنا فى نظرية الماهية عن فكرتين اساسيتين هما : (١) الارتباط بالذات. (٢) الارتباط بالآخر . والوجود المشخص يضم جانبى هذه العلاقة . فهو من جهة فى هوية مع نفسه ويقوم على قواعده الذاتية، وهو من جهة أخرى يتعلق بموجود غيره . فاذا نظرنا الى الوجود المشخص بوصفه مرتبطا بنفسه ، ومرتبطا بغيره فى وقت واحد سميناه بالشىء . والمقولة الأولى فى هذه الدائرة

obeikandl.com

هى مقولة الشىء وصفاته .

١ - الشيء وصفاته

إن تحليلا للمفهوم السائد عن العالم يرينا ان العالم يتكون من (١) أشياء لها وجودها القائم بذاته ومن (٢) علاقات بين هذه الاشياء . ولكن العلاقات لا توجد بذاتها كما توجد الاشياء . انها صفات للاشياء . ونستطيع أن نميز هنا بين فكرة الكيف التى رأيناها سابقا وبين فكرة الصفة .

الكيف كما رأينا يتحد مع الشىء نفسه . أما الصفة فهى لا تتحد مع الشىء . فالصفة ليست جزءا من الشىء نفسه وانما تشير إلى تأثيره على أشياء أخرى أو تأثيره بها . فالمعدن يتصف بأنه يتمدد بالحرارة . ولكن هذه الصفة ليست كالكيف المجرد الذى بزواله يزول الشىء نفسه .

إن الجدول يرينا أن المقولة المجردة تصبح أكثر عينية كلما تقدمنا فى عملية الاستنباط وهكذا فالصفة مقولة أكثر عينية من مقولة الكيف .

٢ - الشيء وعناصره

قلنا إن الشىء يوجد «فى ذاته» وان الصفة توجد بين الاشياء . ولكن بما ان العلاقة مع الذات تتضمن العلاقة مع الآخر . كما تتضمن الهوية الاختلاف، والعكس بالعكس ، فان الصفة تصبح علاقة مع الذات ، كما يصبح الشىء علاقة مع الآخر . والنظر إلى الصفات فى هذه الزاوية يجعلها تكف عن أن تكون صفات لتصبح العناصر التى يتألف منها الشىء . فلو قلنا أن الروح يتألف من معارف وانفعالات وأفعال ارادية كنا بصدد مثال عن الشىء وعناصره .

فالانفعال يمكن أن ينظر اليه على انه صفة من صفات الروح. ولكن اذا اعتبر «كيانا» شبه مستقل أصبح عنصرا من العناصر المكونة للروح .

٣ - المادة والصورة

ان عناصر الشىء المقومة متعددة ومختلفة فيما بينها . ولكنها من جهة

ثانية عناصر شيء واحد . وإذا فحصنا مفهوم الشيء الواحد، رال التمايز بين العناصر ، كما يزول بين الصفات واستحالت جميعا إلى «مادة» واحدة. وإذا كانت هذه المادة لا تحتوى أى تمايز داخل ذاتها فقد أصبحت مادة غير محددة أو غير معينة . ذلك أن كل تعيين فهو يفترض الحد والتمييز والاختلاف . وبهذا تمثل المادة جانب الهوية المجردة . وعند ذلك يتمثل الاختلاف فى «الشيء» نفسه . وهذا يعنى إن الشيء قد أصبح صورة ، ذلك ان الصورة هنا تعنى المبدأ الذى به تتعين المادة وتتميز . وبذلك نصل الى مفهوم المادة والصورة .

إن هذا المفهوم الهيجلى للمادة والصورة هو المفهوم اليونانى نفسه ، فالمادة ليست المادة المعينة التى نجدها عند الفيزيائيين كالحديد والماء ، وانما هى «الهيولى» غير المحدد كما نجدها عند أفلاطون وأرسطو . اما الصورة فهى مبدأ التعيين الذى يضاف إلى الهيولى غير المعينة ليكون منها الشيء الفردى المعين.